إلى سميح القاسم:
في عيد ميلاده الستين

في كلام أحدنا عن الآخر سهولة المشترك الرائج، منذ نهضنا معاً من قاع النسيان إلى ذاكرة الجماعة، حتى اختلط الإسمان، اسمك واسمي، في عفوية الأخطاء الشائعة... كأن يُنْسَب الى أحدنا نصُّ الآخر، دون أن يحدث اضطراب في السياق، لا لشيء إلاّ لأن النبع واحد، ولأن صداقتنا كانت أقوى من الحب.

لذا، كنا في حاجة إلى البحث عن صعوبة المختلف. وإن كنا توأمَيْ طبيعة واحدة وتجربة واحدة، إلا أن طبيعة الشعر ذاتها لا تأبى التطابق بين شاعرين فحسب، بل تأبى التطابق أيضاً بين قصيدتين لشاعر واحد. وهكذا كان علينا أن نفترق، مجازاً، لكي نتكامل أكثر في تنوع المشهد الشعري البكر، المفتوح على مهامَّ تُرْهِقُ اللغة بواجبات الدفاع عن كل شيء، كل شيء، من الحق في التكوين إلى الحق في الوجود، إلى حق الإبداع في الصراع مع أدواته، ولو اضطره الإيقاع إلى وضع القافية في عروة قميص!

كنّا صغيرين. كان من الضروري أن نكون صغيرين لنؤمن بقدرة الشعر على ما ليس فيه. وحين كنا نحسب أننا نلعب بنظام القصيدة، دون معلّمين، كنا نعبث أيضاً بمقدسات النظام السياسي القائمة على سفر تكوين مختلف، لا وجود لنا فيه، نحن الكائنات الهابطة إلى الأرض من خيال شرقي جامح. فنحن لم نكن فيه لا واقعاً ولا أسطورة، فمن أين للشعر إذاً أن يكون؟

في السجون، تعلّمنا أولى دروس النقد. أدركنا أن الشعر ليس بريئاً إلى هذا الحد، فهو إذ يُسمّي المكان يسمي الكائن. وهو، إذ يُسمي فلسطين باسمها الأسطوري والواقعي، يصبح جزءاً لا يتجزأ من مشروع حرية لا شفاء منها.

حين التفتُّ الآن إلى الوراء، أرى الوراء أمامي، أرى كهولة تتقدم نحو الطفولة، أرى المجهول قابلاً لملامسة الحواس، أحسّه طازجاً يحرِّضنا على الطيران في أفق مليء بالمغامرة. وأراك، يا سميح، أقربنا إلى صورة الشاعر الفارس، لغةً وهبوباً وشبق حياة. لقد شربت من خمرة الصعاليك ما يكفي لتدير لهم ظهرك، باحثاً عن نظام أمارتك الخاص، عن قصيدتك التي تؤسِّس هوية البركان. ولا ترضى إلا بما ينقصها من غد أجمل، لتواصل الإنشاد.

ليس سميح القاسم بسيطاً كما قد يزعم دفاعه الدائم عن البساطة. فيه من التركيب والتجريب ما جعله قادراً على استيعاب تجربة الشعر العربي كلها، من العمودي إلى النثري، من الرعوي إلى ما بعد الحداثة، من الأغنية القصيرة إلى النشيد الملحمي، دون أن يحبس تعدُّد خياراته الجمالية في شكل واحد، فليس من مهمة الشعر أن يقدّم الجواب الأخير عن قلق الشكل، ليس للشعر إلاّ.. أن يقترح. ومن هنا، نجد في ديوان سميح صورة الشعر العربي وخصوبة أسئلته عن تطوره الدائم.

لكنه، وهو المؤمن بفاعلية الشعر غير القابلة للمساءَلة، لم يصغِ إلى إغواء حداثة تضع داخل الشاعر نقيضاً لخارجه. لم يقبل بوضع الذات نقيضاً للعالم. فعلى عتبة هذا التماس – اللقاء، يحقق الشعرَ الذي يجد فيه القارئ صورته وصوته، وطاقته على المشاركة في مدّ القصيدة بحياة أخرى.

وكم كنّا نتنافس. كم كان كل واحد منا يتعلم من تجربة الآخر، من موقع صوته المختلف، لتطوير قصيدته التي كان يصعب عليها عدم الإصغاء إلى أختها. كان ليلنا طويلاً، نتقاسمه كما نتقاسم الرغيف وفنجان القهوة والمعطف الشتوي. وكان قمرنا واحداً، يتدلّى كجرس إلهي، من صنوبر الكرمل. أما الشمس، فقد كنا نغرب معها ونشرق معها، لا استعارة، بل قصاصاً لنا على ما ارتكبنا من شعر حاول ألاّ يجعل حزيران أقسى الشهور!

وكُنّا، المُثقلين بمسؤولية معنوية في ذلك الشهر الممتد إلى الآن، نزداد حزناً من عجز الجرح عن كسر السكين، ومن عجز الإيقاع عن إسقاط طائرة. كان ليلنا طويلاً علينا وعلى صورتنا التي لم نجدها في المرآة. وكم كنا نتنافس على تقريب الصورة من الواقع، وعلى دفع الشعر إلى التعويض عن خسارة كبرى لم تسلَم منها غير الروح.

وكنتَ، يا سميح، أكثرنا فتوة. صدَّقتَ أن في القصيدة ما ليس فيها. وصدّقتَ أن في وسع الشعر، ولو كان وحيداً، أن يحارب على جميع الجبهات، الداخلية منها والخارجية. لذا بقيتَ أكثرنا فتوة، فتىً في الستين، أو طفلاً في الستين. ولكن قل لي: متى غافلتَ نفسك وغافلتنا وبلغت الستين؟ وهل يكبر الشعراء الذين لا مهنة لهم إلا تجديد شباب اللغة، وفتوة الأمل، وصيانة الروح من الصدأ والملل؟

وقل لي أيضاً: على ماذا نتنافس الآن، وأنت تناديني إلى الستين عما قليل؟ وماذا تصنع الديكة، في مثل هذا العمر، غير أن تتذكر ريشها المنتوف!

وكل عام وأنت في خير
أي: كل عام وأنت في شعر

محمود درويش